البلاغة العربية وتحليل الخطاب

د. لخلافة كريم*

تقديم:

إن الباحث في البلاغة العربية القديمة، منذ بداية نشأتها، ليجد حضورا لافتا للأساليب البلاغية في علاقتها بالنص والخطاب، ويصادف اهتماما بارزا بوظائف تلك الأساليب وأبعادها التعبيرية والتداولية والحجاجية، فضلا عن وظائفها الجمالية في الخطاب، مهما كان نوع ذلك الخطاب. فقد كان النص والخطاب حاضرين في تحليلات اللغويين والبلاغيين العرب، كما يقول منذر عياشي: "لقد انطلق الباحثون العرب في درسهم اللغوي من النص - تنظيرا وممارسة – فجاءت علومهم في هذا الميدان تمثيلا حضاريا له. وكانت نظرتهم للأسلوب – في جملة تلك العلوم – أنه أثر من آثار النص، ونتيجة من نتائجه الدالة عليه، فأسسوا بذلك بنيان حضارة معرفية يمكن أن نصطلح عليها باسم حضارة النص."[1]

فما هي ملامح تحليل الخطاب في درسنا البلاغي العربي القديم؟ وأين يتجلى البعد الوظيفي التحليلي في أساليب البلاغة العربية؟ وكيف يمكن الاستفادة من ذلك في تحليل النصوص والخطابات؟

تلك بعض المحاور التي سيحاول هذا البحث إضاءتها.

1) ملامح تحليل الخطاب في البلاغة العربية القديمة:

1-1- ارتباط البلاغة العربية بالنص والخطاب

أثبتت الدراسات الحديثة وجود علاقة متينة بين البلاغة العربية القديمة والخطاب. فقد استفادت البلاغة العربية من الدراسات اللغوية والنحوية والصرفية السابقة عليها في النشأة والظهور. ذلك أن الدرس اللغوي العربي، نحوا وصرفا ولغة، قد بدأ مبكرا وتطور بعد عصور التدوين، بينما تأخر التنظير البلاغي إلى حوالي القرن الثالث الهجري. وكان هذا لصالح البلاغة العربية التي اتخذت بعدا خطابيا أسلوبيا. وهذا ما يؤكده الباحثون والدارسون، يقول منذر عياشي:" ولو تأمل المتأمل، لتأكد أن الدرس البلاغي العربي إنما كان درسا أسلوبيا على وجه الإجمال. وما كان ذلك ليكون إلا لأن الدرس اللغوي كان سابقا على الدرس البلاغي في التراث

* أستاذ باحث بمختبر الخطاب وتكامل العلوم والمعارف، جامعة مولاي إسماعيل، الكلية المتعددة التخصصات بالرشيدية.

[1] - منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الأولى/ 2002 ، ص 28- 29 بتصرف

العربي. وهذه نقطة خلاف وتميز مع \ومن التراث اليوناني الذي كان الدرس البلاغي فيه سابقا على الدرس اللغوي."[1]

وإذا كان التنظير البلاغي العربي قد جاء متأخرا إلى ما بعد عصر التدوين، أو إلى عهد الجاحظ، فإن الإنجاز البلاغي العربي كان قديما، بدأ مع بداية الإبداع الشعري والنثري، أي منذ العصر الجاهلي. وهذا الإبداع لم يكن مقتصرا على الشعراء ولا الخطباء ولا الرجاز ولا الكهان، بل شمل غيرهم؛ فالعرب كانوا أهل بلاغة وفصاحة حتى في محادثاتهم العادية، وفي تحاورهم اليومي.

وقد بدا ذلك واضحا في تفاعل العرب مع الشعراء والخطباء منذ العصر الجاهلي، وفي موازناتهم ومفاضلاتهم بين الشعراء، وفي ملاحظاتهم العفوية، وانتقاداتهم الانطباعية، التي تضمنت إشارات بلاغية مهمة، لذلك يمكن القول: إن ظهور الملاحظات الأسلوبية كان سابقا على ظهور علوم اللغة والبلاغة، يقول د. محمد العمري: "من البديهي أن أول تفكير في اللغة كان تفكيرا بلاغيا، فقد ظهرت الملاحظات الأسلوبية قبل ظهور العروض والنحو والمنطق، كما روي في تلقي الشعر العربي في الجاهلية وصدر الإسلام، أي قبل ظهور المصطلح البلاغي كنسق لعلم... كانت هذه الملاحظات هي المصدر الأول للبلاغة العربية حيث جمعت لاحقا تحت اسم البديع ومحاسن الكلام (ابن المعتز)، وقد تطور هذا المسار من خلال الخصومات حول ما هو بديع وما ليس كذلك."[2]

ارتباط علماء العربية بالخطاب القرآني

لقد كان علماء العربية القدامى مرتبطين منذ وقت مبكر بالخطاب القرآني، بوصفه مصدرا من مصادر اللغة العربية، ينطلقون منه ومن غيره من المصادر المعروفة لوضع قواعدهم، وللاحتجاج لآرائهم ومذاهبهم في النحو واللغة. وزاد من تعلقهم وارتباطهم بالخطاب القرآني ما تميز به هذا الخطاب من إعجاز بياني، شغَلَ البلاغيين الأوائل بالبحث عن أسراره الأسلوبية والبيانية.

ويعد أبو عبيدة معمر بن المثنى اللغوي البصري(ت210ه)، من أقدم العلماء الذين توقفوا عند البيان في الخطاب القرآني، في كتابه "مجاز القرآن"، الذي بين فيه " كيفية التوصل إلى فهم

[1] - منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ص 27، 28 .

[2] - الدكتور محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، إفريقيا الشرق - المغرب، ط 2005، ص 28.

المعاني القرآنية، باحتذاء أساليب العرب في الكلام، وسننهم في وسائل الإبانة عن المعاني"[1]. فجاء كتابه غنيا بالمأثور من كلام العرب الذي يساعد على فهم معاني القرآن الكريم. وكان أبو عبيدة يقصد بكلمة "مجاز"، "المعنى اللغوي الواسع الذي عرفه من الوضع اللغوي، وهو المعْبر والمَمَر والطريق، فكان معنى" مجاز القرآن" طريق الوصول إلى فهم المعاني القرآنية، يستوي عنده أن يكون طريق ذلك تفسير الكلمات اللغوية التي تحتاج إلى تفسير بالجملة الشارحة، أو بالمرادف المفسر من المفردات، وما كان عن طريق الحقيقة بمعناها، أو عن طريق المجاز بمعناه عند البلاغيين...

وقد اتسع معنى (المجاز) عنده، وأصبح في نظره صالحا لكل وسيلة تعين على فهم آي الكتاب الكريم، وإدراك معانيه"[2]، يقول أبو عبيدة: "ففي القرآن ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني، ومن المحتمل من مجاز ما اختصر، ومجاز ما حذف، ومجاز ما كف عن خبره، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع ووقع معناه على الاثنين... ومجاز المضمر استغناء عن إظهاره، ومجاز المكرر للتوكيد، ومجاز المجمل استغناء عن كثرة التكرير، ومجاز المقدم والمؤخر، ومجاز ما يحول من خبره إلى خبر غيره، بعد أن يكون من سببه، فيجعل خبره للذي من سببه ويترك هو. وكل هذا جائز قد تكلموا به"[3].

ثم جاء بعده ابن قتيبة في كتابه " تأويل مشكل القرآن"، فأبدع وأجاد في تهذيب ما خفي عن العامة من آي القرآن الكريم، إذ وضح بعض ما أشكل عليهم، مما لا يمكن تفسيره بالاعتماد على ظاهر لفظه، مما فيه مجاز أو استعارة أو كناية أو غير ذلك من الأساليب التي خرجت عن ظاهر معناها إلى غرض آخر اقتضاه المقام، واستدل على ذلك بالمأثور من كلام العرب. فكان عمله إسهاما حقيقيا في الدرس البلاغي العربي وفي بيان أهمية هذا الدرس في فهم الخطاب وتفسيره وتحليله، يقول بدوي طبانة: "ولا شك أن هذه الدراسة المستوعبة أثر من آثار المتكلمين، وجهد في سبيل فكرة الإعجاز التي نحن بصددها، ودفاع عن القرآن. ولقد جر هذا البحث، كما ترى،

---

[1] - البيان العربي: دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، بدوي طبانة، مطبعة الرسالة، ط2 (1377 هـ-1958م)، ص 17..

[2] - البيان العربي، بدوي طبانة، ص 18.

[3] - مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي، تعليق محمد فؤاد، الطبعة الأولة (1374هـ/1954م)، الجزء الأول، ص18-19.

إلى دراسة تتناول مناحي التعبير، والفحص عن أصوله"[1]. وقد دافع ابن قتيبة عن "المجاز"، ووضح أنه ضرورة لغوية تعبيرية[2].

تطور النظر البلاغي إلى الخطاب

انطلق البلاغيون العرب القدامى إذن من نتائج الدراسات النحوية والصرفية واللغوية عموما. وهذا ما يؤكده عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز لما تحدث عن أهمية النحو في البلاغة.[3]

وقد تضاعف الإنجاز البلاغي في صدر الإسلام وفي العصرين الأموي والعباسي الأول مع الفرق الكلامية، والأحزاب السياسية المتصارعة التي سخرت - من ضمن ما سخرته في معاركها وخصوماتها - الشعر والخطابة والمناظرة والرسائل، وكانوا يعلِّمون المنتسبين إليهم أساليب الخطابة والمناظرة، وطرق الإقناع والتأثير في المخاطبين، وبدا ذلك واضحا عند المعتزلة، وذلك ما يتبين من صحيفة بشر بن المعتمر، التي نقلها إلينا الجاحظ وأبو هلال العسكري، وهي أول أثر بلاغي مدون. وقد ترددت آراء بشر وما جاء في صحيفته الحجاجية عند البلاغيين العرب الأوائل، كالجاحظ (ت255ه) الذي يُعد من أوائل المؤسسين للنقد والبلاغة في تراثنا العربي القديم.

فالجاحظ في البيان والتبيين قام بالتنظير للخطابة وبين ما يجعل الخطيب مقنعا ومؤثرا في المخاطبين، بل نبه على ما يحول بينه وبين جمهوره من عيوب، مما له صلة باللباس أو الحركة أو اللسان. فهو "الذي انتبه إلى أن اللغوي، لا يستطيع مهما أوتي من معرفة أن يُحاجِجَ في مجال الإقناع حول المسائل الدينية ما لم يستعنْ بعلم الكلام، وعلم الكلام هو علم الحجاج العقلي في المجال الديني."[4]

ومن البلاغيين الذين اهتموا بالخطاب في دراساتهم البلاغية، أبو الحسن ابن وهب(ت335ه) في كتابه "البرهان في وجوه البيان"[5]. وقد ذكر المؤلف في مقدمة البرهان أن كتابه يأتي استجابة

---

[1] - المرجع السابق 27.

[2] - تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، شرحه ونشره أحمد صقر، المكتبة العلمية، دون طبعة ولا تاريخ ، ص 20-21.

[3] - دلائل الإعجاز: 29 -32 وتنظر الصفحة 81.

[4] - محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول ص: 28.

[5] - البرهان في وجوه البيان، تأليف أبي الحسين اسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تقديم وتحقيق د. حفني محمد شرف ، مطبعة الرسالة، تنظر مقدمة المحقق. وقد نسب هذا الكتاب خطأ لقدامة بن جعفر تحت عنوان "نقد النثر"، لكن المحققين أثبتوا فيما بعد أن الكتاب لابن وهب وليس لقدامة.

لأحد معاصريه الذي طلب منه بيان ما قصر في بيانه الجاحظ من وظائف البيان وأقسامه. وفي باب "العبارة" وفي باب "الكتاب"، أي في الوجه الثاني والوجه الثالث من أوجه البيان عند ابن وهب[1] نجد مباحث مهمة في البلاغة والكتابة والشعر والخطابة والجدل، تناولها ابن وهب من زوايا عدة، تواصلية وحجاجية وأجناسية ونقدية، مما جعل كتابه جامعا بين بلاغة الشعر وبلاغة النثر وبين مباحث التخييل ومباحث الحجاج والتواصل والتداول، لذلك فالكتاب يمكن تصنيفه بدون تردد ضمن كتب البلاغة العامة.

ففي باب تأليف العبارة - وهو من أهم المباحث عنده - بين ابن وهب أنواع العبارة في لسان العرب وأنها إما شعر أو نثر، يقول: "اعلم أن سائر العبارة في لسان العرب إما أن يكون منظوما أو منثورا، والمنظوم هو الشعر، والمنثور هو الكلام، فالشعر ينقسم أقساما: منها القصيد وهي أحسنها وأشبهها بمذاهب الشعراء، ومنها الرجز وهو أخفها... ومنها المسمط... ومنها المزدوج."[2]

وعموما فقد بلغت البلاغة العربية مبلغا كبيرا في الرقي والازدهار عند البلاغيين المتقدمين، واتخذت طابعا خطابيا تداوليا وحجاجيا إلى جانب اهتمامها بالتخييل والإفهام والبيان. فاكتسبت بذلك بعدا خطابيا. وقد عمَّق ذلك البعد ارتباط العرب، منذ وقت مبكر، بالنص والخطاب؛ فبعدما كانوا مرتبطين بالنص الشعري في العصر الجاهلي، صاروا متعلقين بالخطاب القرآني بعد نزول القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم. إذ صدرت عنهم ردود فعل متباينة حول بلاغة هذا الخطاب. ورغم تشبث بعضهم بمعتقداتهم الجاهلية، فإنهم لم يستطيعوا جحود بلاغة هذا الخطاب.

وزاد من ذلك التعلق والارتباط، ما تميز به هذا الخطاب من إعجاز بياني، شغل البلاغيين الأوائل بالبحث عن أسراره الأسلوبية. فكانت الدراسات الإعجازية المبكرة مع المتكلمين كالرماني والخطابي والباقلاني وغيرهم دراسات في الخطاب، لأنها كانت تبحث في أسرار الإعجاز البياني للخطاب القرآني. إذ ظل المتكملون ناشطين في وضع المباحث البلاغية قصد تفسير الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ويأتي في مقدمة أبحاثهم: "النكت في إعجاز القرآن للرماني"، الذي فصل القول في البلاغة وأقسامها وجعلها عشرة هي: الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان. وجاء بعده الباقلاني الأشعري فنوَّه

[1] -البيان، عند ابن وهب، على أربعة أوجه: "فمنه بيان الأشياء بذواتها، وإن لم تبنْ بلغاتها؛ ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكر واللب، ومنه البيان باللسان ومنه البيان بالكتاب الذي يبلغُ من بعُدَ وغاب." ينظر المصدر السابق ص: 56.

[2] - البرهان في وجوه البيان ص: 127.

بنظم القرآن العجيب، وذلك في كتابه "إعجاز القرآن"، واعتبره الذروة في البلاغة، ونفى أن يكون مدار إعجازه "البديع" أو أقسام البلاغة التي عددها الرماني.

فالبعد النصي الخطابي إذن قيمة معرفية هامة صاحبت أعمال اللغويين والمتكلمين والبلاغيين العرب القدامى، فمن الخطاب انطلق اللغويون والبلاغيون العرب لتأسيس نظرياتهم في اللغة والبلاغة.

فقد كان الدرس البلاغي عند هؤلاء البلاغيين العرب يرتكز على النص \ الشاهد، لذلك جاءت مصادرهم حافلة بالخطابات القرآنية والحديثية والشعرية وكلام العرب.

ثم إن الاستشهاد بالخطاب عند البلاغيين العرب كان مصحوبا بنوع من التلقي، فغالبا ما نجدهم يقرؤون الشاهد ويقفون عند مستوياته اللغوية والبلاغية، مبرزين مظاهر الجمال والإبداع فيه. بل إن ذلك الاهتمام يزيد كلما اشتغل البلاغي على خطاب بعينه، وهذا ما يتجلى في أوضح صوره عند بعض المفسرين كالزمخشري في "الكشاف"، وأبي حيان الأندلسي في "البحر المحيط" والبلاغي الحديث الطاهر ابن عاشور في " التحرير والتنوير".

النقد التطبيقي والاهتمام بتحليل الخطاب:

من المعلوم عند الباحثين في البلاغة العربية، أن كتب النقد العربي القديم تضمنت مباحث بلاغية مهمة، بل إن النقاد العرب القدامى قد أسهموا بشكل فعلي في تطور الدرس البلاغي العربي، إذ كانت البلاغة العربية والنقد الأدبي على صلة وثيقة في بداية الأمر، قبل أن تصير البلاغة علما مستقلا بذاته.

وقد جاءت كتب النقد التطبيقي غنية بتحليل الخطاب الشعري والنثري، ويبرز هذا بشكل جلي في شروح الشعر العربي التي تضافرت فيها مستويات الدرس اللغوي والبلاغي. إذ كان شراح الشعر يتوسلون باللغة والنحو والصرف والبلاغة في تلقيهم للنص الشعري، وفي تفسيرهم له، ولا يستخلصون دلالته إلا بعد المرور من هذه البوابات[1].

لذلك وردت مباحث البلاغة في هذه الشروح مستثمرة وموظفة في قراءة الخطاب الشعري، مسهمة في إنتاج المعنى والدلالة، وفي نقد النص موضوع الشرح وموازنته بغيره في الأسلوب واللفظ والمعنى.

ظهرت هذه العناية بالأساليب، في أبرز صورها وتجلياتها في شروح الشعر العربي القديم التي ارتكزت على تحليل الخطاب الشعري وقراءته عبر مستوياته اللغوية والبلاغية، لدرجة أن معنى البيت عند الشارح لا يتحدد إلا بعد استقراء الأساليب والجمع بين دلالاتها[2].

وفي كتب البلاغة دراسات للأساليب البلاغية، جاءت في سياق تلقي الشاهد القرآني أو الشعري أو النثري، تكشف عن اهتمام مبكر بتحليل الخطاب على أساس بلاغي، فيما يلي نماذج لذلك.

2 – الأبعاد التداولية والدلالية لأساليب البلاغة العربية:

إن المتأمل في الدراسات الخطابية التي حفل بها تراثنا اللغوي والأدبي والتفسيري، يجد حضورا لافتا لأساليب البلاغة العربية، واستثمارا وتوظيفا بارزا لها في التهذيب والتحليل والتفسير والتأويل. وتأتي أساليب علمي البيان والمعاني في مقدمة أساليب البلاغة العربية التي يحضر فيها البعد الخطابي بشكل واضح وجلي عند أئمة هذه البلاغة. وذلك ما يكشف عنه البحث في مصادر البلاغة العربية القديمة، وفي أهم المباحث كمباحث التشبيه والاستعارة

---

1 - وقد بينت ذلك في أطروحتي لنيل شهادة الدكتوراه، التي عنونتها "مستويات القراءة في شروح الحماسة للمرزوقي والأعلم والتبريزي، (2006). وبينته في كتابي " اللغة والدلالة في النص الشارح" (2012).

2 - وقد بينت ذلك في كتابي "اللغة والدلالة في النص الشارح" (2012)، وفي أطروحة الدكتوراه التي كانت تحت عنوان "مستويات القراءة في شروح الحماسة" (2006).

ومباحث التقديم والتأخير والوصل والفصل، والإيجاز والاطناب، والحذف والذكر، والخبر والإنشاء. فالبلاغيون العرب[1]، حين يدرسون هذه الأساليب، لا يكتفون بتعريفها أو تقسيمها، على خلاف ما شاع عند البلاغيين المتأخرين، بل إنهم يقومون بتحليل النصوص المستشهد بها تحليلا أسلوبيا، ويبرزون وظيفة تلك الأساليب التعبيرية والدلالية والحجاجية وأبعادها التداولية، وقد يقارنون ويوازنون بين النصوص وبين الشعراء في الأسلوب نفسه. وفيما يلي توضيح للملامح الخطابية لبعض تلك الأساليب البلاغية في بعض كتب البلاغة.

2 – 1 – أسلوب التمثيل:

حظي التمثيل باهتمام بالغ عند البلاغيين العرب القدامى إلى جانب التشبيه، ولم يقفوا عند حد تعريفه، بل تجاوزوا ذلك إلى دراسة نماذج من الخطابات المتضمنة له. ومن أكثر البلاغيين العرب عكوفا على دراسة التمثيل والتنويه بقيمته البلاغية والخطابية، عبد القاهر الجرجاني، ومن أمثلة ذلك عنده قوله: «ألا ترى إلى نحو قوله عز وجل: (**إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الارض مما ياكلُ الناس والانعام حتى إذا أخذتِ الارضُ زخرفها وازَّيَّنتْ وظنَّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأنْ لم تغْنَ بالامسِ**)[2]. كيف كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى في هذه الآية عشْر جملٍ إذا فصلت. وهي وإنْ كان قد دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة، فإنَّ ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة. ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض وإفراد شطر حتى إنك لو حذفتَ منها جملةً واحدة من أي موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه.

ولا ينبغي أن تعد الجمل في هذا النحو بعد التشبيهات التي يضم بعضها إلى بعض والأغراض الكثيرة التي كل واحد منها منفرد بنفسه، بل بعد جمل تنسّق ثانية منها على أوله وثالثة على ثانية وهكذا. فإن ما كان من هذا الجنس لم تترتب فيه الجمل ترتيبا مخصوصا حتى يجب أن تكون هذه سابقة وتلك تالية لها والثالثة بعدهما...»[3].

فالمتأمل في الآيتين السابقتين وغيرهما كثير في الخطاب القرآني يجد أن أسلوب التمثيل حقق عدة وظائف:

---

[1] - كعبد القاهر الجرجاني والزمخشري والسكاكي وحازم القرطاجني.

[2] - سورة يونس الآية 24.

[3] - أسرار البلاغة ص 88، وقد جاء بهذا الكلام في سياق تمييزه بين التشبيه المفرد والتشبيه المركب.

1) الوظيفة النصية وهي التي ركز على بيانها عبد القاهر الجرجاني في نصه السابق، إذ كشف عن ترابط وتناسق عدة جمل في هذا الخطاب وكأنها جملة واحدة، وأن التمثيل لا يمكن تحديد وجه الشبه فيه اعتمادا على بعض الجمل، بل إن الصورة منتزعة من كل هذه الجمل.

2) الوظيفة البيانية: فبالتمثيل تم توضيح حقيقة الحياة الدنيا وزينتها، وأنها سرعانما تفنى وتزول كفناء النبات بعدما كان مخضرا يانعا تعجب صورته وتغري.

3) الوظيفة الحجاجية الإقناعية: وتتمثل في إقناع المخاطبين بأن هذه الحياة وزينتها لا تدوم لذلك لا ينبغي الاغترار بها، أو الانشغال بتحصيلها وترك ما هو أهم وهو العمل للآخرة.

4) الوظيفة التأثيرية: التأثير على المخاطبين وحملهم على تغيير موقفهم من زينة الحياة الدنيا، والتكيز على العمل للآخرة.

فتحليل عبد القاهر الجرجاني لهذه الآية وقراءتها ركز على الجانب الأسلوبي المتمثل في أساليب التمثيل والوصل ثم أهمية الربط والتنسيق والترتيب في أداء وظائف هذا التمثيل، حسب ما يتضح من قوله: " ولا ينبغي أن تعد الجمل في هذا النحو بعد التشبيهات التي يضم بعضها إلى بعض والأغراض الكثيرة التي كل واحد منها منفرد بنفسه، بل بعد جمل تنسّق ثانية منها على أوله وثالثة على ثانية وهكذا. فإن ما كان من هذا الجنس لم تترتب فيه الجمل ترتيبا مخصوصا حتى يجب أن تكون هذه سابقة وتلك تالية لها والثالثة بعدهما."[1]

وهذا يرتبط بفلسفة النظم عند عبد القاهر الجرجاني، إذ لا تكتمل وظائف التشبيه ولا الاستعارة عنده إلا بالنظم. وقد صنف بابا من أهم أبواب كتابه " دلائل الإعجاز" في الاستدلال على أن المزية لا تكون للفظ أو للأسلوب من حيث إنه أسلوب أو لفظٌ، بل لما يؤديه من مقاصد وأغراض[2]، ولما يأتي عليه من طرق إسناد في تراكيبه ونظمه وترتيب مكوناته. وقد توقف عند نماذج للاستعارة فبين كيف أسهمت عناصر أخرى مرتبطة بالتركيب والوصل والنظم في ما صار لها من المزية والحسن، يقول: "ومن دقيق ذلك وخفيه، أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى: (واشتعل الرأس شيبا)...لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرفَ إلا إليها، ولمْ يروا للمزية موجبا سواها. هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم. وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجليلة، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام = لمجرد الاستعارة، ولكن لأن سُلِكَ بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء، وهو لما هو من سببه،

[1] - ينظر أسرار البلاغة ص: 88.

[2] - دلائل الإعجاز ص 87 وما بعدها، "فصل في أن هذه المزايا في النظم، بحسب المعاني والأغراض التي تُؤم".

فيرفع به ما يسندُ إليه، ويؤْتى بالذي الفعل له في المعنى منصوبا بعده، مبينا أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول، إنما كان من أجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة، كقولهم: طاب زيدٌ نفساً"[1].

فعبد القاهر الجرجاني في تحليل هذا الخطاب القرآني بيَّن أن الاستعارة لم تنفرد بما حققه هذا الكلام من أغراض ومعان، بل ساندها في ذلك التركيب النحوي للآية، الذي تم فيه إسناد الفعل (اشتعل)إلى الفاعل غير الحقيقي (الرأس) وصار فيه الفاعل الحقيقي (الشيبُ) مفعولا به. مما اثمر أغراضا ومعاني ما كان للتركيب الأصلي أن يحققها، يقول: "فإن قلتَ: فما السبب في أن كان "اشتعل" إذا استعير للشيب على هذا الوجه، كان له الفضل؟ ولمَ بَانَ من المزية بالوجه الآخر هذه البيْنونة؟.

فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى، الشمول، وأنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استغرقه وعمَّ جملته، حتى لم يبق من السواد شيء، أو لمْ يبق منه إلا ما لا يعتدُّ به. وهذا ما لا يكون إذا قيل: "اشتعل شيب الرأس، أو الشيبُ في الرأسِ"، بل لا يوجِب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة."[2]

وهكذا يظهر أن عبد القاهر الجرجاني يجعل الأسلوب البياني لا يحقق الأغراض المقصودة بمفرده بل بمعية التركيب النحوي وما يطرأ عليه على مستوى الإسناد من تقديم وتأخير وغير ذلك من أحوال المسند والمسند إليه المعروفة. وتلك المقاصد والأغراض هي مرتبطة بعناصر التخاطب من مخاطِبٍ ومخاطَب ورسالة تخاطبية، وعلى أساسها يحلل البلاغيون الأساليب ومقاصدها وأغراضها.

ثم إن البلاغيين في تعريفهم للأساليب البيانية وفي حديثهم عن أغراضها ووظائفها، يربطون ذلك بأغراض الخطاب ومقاصد المتكلم، ففي بيان وظائف التمثيل ومواقع تأثيره على المخاطَبِ يقول عبد القاهر الجرجاني: "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أنَّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونُقِلتْ عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهةً، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبَّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوبَ إليها...

[1] - دلائل الإعجاز ص 100.

[2] - المصدر السابق 101.

فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم، وأنبلَ في النفوس وأعظمَ، وأهز للعطف، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدِح، وأوجب شفاعة للمادح...

وإن كان ذمًّا كان مسُّه أوجع، وميسمُه ألْذعَ، ووقعه أشدَّ، وحدُّه أحدَّ."[1]

فلنتأمل قوله: "فإن كان مدحا كان أبهى وأفخمَ... وإن كان ذمًّا كان مسُّه أوجع"، فالتمثيل كأسلوب بياني ربط بالخطاب وبمقاصده، فهو إما أن يكون خطاب مدح أو خطاب ذم أو خطابا آخر، وفي كل خطاب يحقق أغراضا تخاطبية كما جاء في النص السابق. وهذا الربط للأسلوب البياني بالخطاب نجده راسخا عند النقاد والبلاغيين، وقد عبروا عن ذلك بقولهم على سبيل التقرير والتأكيد في تعريف الشعر وبيان حقيقته: "وهل الشعر إلا تشبيه نادر، أومثَلٌ سائر، أواستعارةٌ قريبة؟".

فأن يختصر الشعر في حقيقته وجوهره في أنه تشبيه نادر أو مثل سائر أو استعارة قريبة، أمر دال على نظرة هؤلاء البلاغيين لهذه الأساليب وصلتها الوثيقة بالخطاب وعلاقتها بأطراف التخاطب.

2 – 2 - أسلوب الوصل والفصل:

يعد هذا المبحث البلاغي مبحثا خطابيا بامتياز، لأنه يبحث في ترابط الجمل وتماسكها وتناسقها، مما يجعل البلاغيين أثناء دراسته يشتغلون على الخطاب وليس على المثال المفرد. وقد أولت البلاغة العربية القديمة أهمية بالغة لمسألة الربط بين الجمل في مبحث الوصل والفصل، وخاصة الربط بالواو، وهو عند البلاغيين مسلك دقيق. فبينوا متى يجب الوصل بين الجمل، ومتى يمتنع، ووضحوا علاقة ذلك بالدلالة والسياق وبمقصدية المتكلم وعلاقته بالمخاطب. فهذا عبد القاهر الجرجاني يقول في شأن الجمل التي لا تحتاج إلى وصل: "واعلم أنه كما كان في الأسماء ما يصله معناه بالاسم قبله، فيستغني بصلته معناه له عن واصل يصله ورابط يربطه، = ... = كذلك يكون في الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتي قبلها، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها. وهي كل جملة كانت مؤكدة للتي قبلها ومبينة لها."[2]. فعبد القاهر في هذا النص يبين أن ما يجري في المفردات يجري في الجمل، فكما أن المفرد في حال التوكيد والبيان والصفة لا يحتاج إلى وصل، فكذلك الجمل لا تحتاج إلى الوصل والربط في هذه

[1] - أسرار البلاغة ص 93 .

[2] - دلائل الإعجاز 227 (بتصرف)

الحالات. وقد استدل على ذلك بنصوص من القرآن الكريم، منها قوله تعالى في سورة البقرة: (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يومنون ختمَ الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم.)،[1] " فقوله تعالى: "لا يؤمنون" تأكيد لقوله: (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم)، وقوله : (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم)، تأكيد ثان أبلغ من الأول، لأن من كان حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر، كان في غاية الجهل، وكان مطبوعا على قلبه لا محالة."[2] وقد قام الجرجاني بتحليل عدة آيات بهذه الطريقة الأسلوبية.[3]

وقد لاحظ الدارسون المحدثون هذا المسلك الأسلوبي لمبحث الوصل والفصل في البلاغة العربية، فهذا محمد عبد المطلب يقول: "ومن مباحث المعاني التي تتميز بإمكاناتها الأسلوبية مبحث الفصل والوصل لاعتماده على الأدوات الرابطة، التي يطلق عليها حروف المعاني، والتي خرج بها البلاغيون عما تؤديه من وظيفة نحوية إلى أمور وراء ذلك، من حيث قدرتها على الربط بين الجمل والمفردات"[4].

2 - 3 – مبحث المقام والسياق:

ومن المباحث البلاغية التي يمكن اعتبارها ارهاصات مبكرة لتحليل الخطاب مبحث المقام والسياق، وهو، كما يقول الدكتور سعد لخذاري: "نقطة مشتركة بين البلاغة العربية والأسلوبية الحديثة."[5]

وقد تميز اتجاه البلاغيين في بحث سياق الظواهر البلاغية، كالحذف والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير وغير ذلك من الأساليب، برصد " الامكانات التعبيرية في اللغة، وما ينتج عنها من تطبيقات في الكلام الإبداعي والإخباري على سواء. وهي إمكانات تهتم بالتنوعات التي لا تقوم على أساس فردي، وإنما تهتم بالمحيط الأسلوبي العام الذي يرتبط بموقف كلامي أو نمط أدبي تتحرك على أساسه الصياغة لتستقر في سياقات محددة."[6] وممن أجاد في هذا الباب السكاكي، إذ خصه بمبحث مهم، تحدث فيه عما يقتضيه المقام من مقال، يقول: "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، و مقام التهنئة يباين مقام التعزية،

---

[1] - البقرة 6-7

[2] - المصدر السابق 228

[3] - ينظر دلائل الإعجاز 228 والصفحات الموالية.

[4] - البلاغة والأسلوبية 284

[5] - الدرس البلاغي العربي بين السميائيات وتحليل الخطاب، سعد الخداري 185

[6] - محمد عبد المطلب البلاغة والأسلوبية 326

ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام على الاستخبار أو الإنكار، وكذا مقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار..."[1]. وقد استحضر السياق والمقام في عدة مباحث أبرزها "الخبر والإنشاء"، فتوصل إلى نتائج مهمة في بيان أغراض الأساليب الخبرية والإنشائية الأصلية والمقامية. ولذلك نجده مرجعا لبعض اللسانيين المحدثين في الكثير من دراساتهم التداولية لهذه الأساليب. إذ بين أن الخبر قد يفيد الطلب بمعونة قرائن الأحوال، وأن الإنشاء قد يفيد الخبر، كدلالة الاستفهام على التقرير أو النفي، يقول: "واعلم أن الطلب كثيرا ما يخرج لا على مقتضى الظاهر، وكذلك الخبر، فيذكر أحدهما في موضع الآخر، لا يصار إلى ذلك إلا لتوخي نكت قلما يفطن لها من لا يرجع إلى دربة في نوعنا هذا"[2].

ولما كانت الأساليب الإنشائية أكثر انزياحا وعدولا عن معانيها الأصلية، فقد خصها السكاكي ببحث مفصل تميز به عن غيره من البلاغيين. إذ بين السكاكي بتفصيل ما قد تفيده الأساليب الطلبية من معان مقامية. ثم قال: "ومتى امتنع إجراء هذه الأبواب على الأصل تولد منها ما ناسب المقام كما إذا قلت لمن همك همه : ليتك تحدثني ، امتنع إجراء التمني، والحال ما ذكره، على أصله فتطلب الحديث من صاحبك غير مطموع في حصوله وولد بمعونة قرينة الحال معنى السؤال"[3].

2 – 4 - أسلوب الالتفات:

يعد أسلوب الالتفات من الأساليب التي نالت اهتمام النقاد والبلاغيين العرب القدامى واكتست في تحليلاتهم وتطبيقاتهم بعدا خطابيا. فقد أظهروا في معالجة هذا الأسلوب إبداعا وتألقا.

والالتفات عند البلاغيين العرب نوع من العدول من ضمير إلى آخر، أومن معنى إلى آخر، أو من زمن إلى آخر. وقد بدأ الاهتمام بهذا الأسلوب مبكرا مع الشاعر الناقد والبلاغي عبد الله ابن المعتز الذي عرفه قائلا: "الالتفات هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك. ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى آخر."[4] والالتفات عند

[1] - مفتاح العلوم 256.

[2] - مفتاح العلوم ص : 323

[3] - مفتاح العلوم ص : 416.

[4] - ينظر كتاب البديع ص 58 .

ابن المعتز من محاسن الكلام والشعر. ثم تطورت مقاربة هذا الأسلوب مع البلاغيين الذين جاؤوا بعده، فقدامة بن جعفر ركز في تعريفه على النوع الثاني الذي يكون فيه العدول من معنى إلى آخر: "الالتفات أن يكون الشاعر آخذا في معنى فيعترضه إما شك فيه أو يظن بأن رادا يرد عليه قوله أو سائلا يسأله عن سببه، فيعود راجعا إلى ما قدمه، بمعنى يلتفت إليه بعد فراغه، فإما أن يذكر سببه أو يجلي الشك فيه."[1]

ومن أمثلة الالتفات عنده قول الرماح ابن ميادة:

فلا صرْمُه يبدو وفي اليأس راحةٌ *** ولا وصلُه يبدو لنا فنكارمُهْ

قال تعليقا على هذا البيت:" فكأنه وهو يقول:" وفي اليأس راحة" التفت إلى المعنى لتقدير أن معارضا يقول له: ما تصنع بصرمه؟ فقال: لأن في اليأس راحة."[2]

إلا أن أسلوب الالتفات سيتخذُ بعدا خطابيا واضحا عند ابن الأثير الذي خصه ببحث مفصل، بين فيه أقسامه وأغراضه، واستشهد له بنصوص كثيرة من القرآن الكريم والشعر العربي القديم، قام بتحليلها ودراستها أسلوبيا، مبرزا الوظائف الدلالية والمقامية والجمالية والحجاجية لأسلوب الالتفات، وقد عرَّض بمن فاته ذلك واكتفى بتفسير بلاغة الالتفات "بالتفنن في الكلام والانتقال من أسلوب إلى أسلوب تطرية لنشاط السامع"[3].

2 – 5 – أسلوب التقديم والتأخير عند عبد القاهر الجرجاني و أبعاده التداولية:

لعل أبرز المباحث البلاغية التي اتخذت عند بعض البلاغيين العرب القدامى بعدا تداوليا واضحا، مبحث التقديم والتأخير، وقد أجاد في معالجته إمام البلاغيين العرب عبد القاهر الجرجاني، الذي توقف عند التقديم مع همزة الاستفهام، ومتى يحصل، وما هي أغراضه المقامية، وعلاقة ذلك بالمقام التخاطبي وبمقاصد المتكلم. كما بين متى يتم تقديم الفعل، ومتى يقدم الفاعل، ومتى يقدم المفعول، مستشهدا بنصوص وشواهد، ومحللا لتلك النصوص تحليلا يجعلك تحس وكأنك أمام لساني تداولي يحللُ الخطاب في علاقته بأطرافه وبسياقه التخاطبي. فقد ميز بين نوعين من التقديم:

أولهما: تقديم على نية التأخير، ومثاله قول المتكلم:

---

[1] - قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص : 150.

[2] - قدامة 151. وقد أعاد أبو هلال العسكري تعريف قدامة وأمثلته، ينظر كتابه :الصناعتين 392ص .

[3] - ابن الأثير، المثل السائر 2\3- 4

- منطلق زيدٌ

- ضربَ عمراً زيدٌ

" ... معلوم أن "منطلق" و"عمرا" لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه، من كون هذا خبرَ مبتدإ ومرفوعا بذلك، وكون ذلك مفعولا ومنصوبا من أجله، كما يكون إذا أخرت."[1]

ثانيهما: "تقديم لا على نية التأخير، " ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعل له بابا غير بابه، وإعرابا غير إعرابه..."[2]، ومثل له بقول المتكلم:

- زيدٌ المنطلقُ

- المنطلقُ زيدٌ

ثم حلل تلك النماذج وبيَّنَ المقتضيات المقامية المناسبة لكل نموذج. يقول: "فأنت في هذا لم تقدم "المنطلق" على أن يكون متروكا على حكمه الذي كان عليه مع التأخير، فيكون خبرَ مبندإٍ كما كان، بل على أن تنقله عن كونه خبرا إلى كونه مبتدأ، وكذلك لم تؤخر "زيد" على أن يكون مبتدأ كما كان، بل على أن تخرجه عن كونه مبتدأ إلى كونه خبرا."[3]

وبعد ذلك توقف عبد القاهر الجرجاني[4] عند قول سيبويه إن التقديم قد تم للعناية والاهتمام، ووضح بعض الأمثلة المتداولة عند النحاة والفرق التداولي بينها، ثم بين أنه لا يكفي تفسير ذلك بالعناية والاهتمام، بل ينبغي البحث في مقتضياته المقامية وأسراره البلاغية، كما انتقد مذهب النحاة في التعامل مع الأساليب البلاغية، وتقصيرهم في البحث عن أسرارها البلاغية، مما فوت عليهم – في نظره – معرفة البلاغة وأسرار النظم. يقول: "وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقول: "إنه قدم للعناية، ولأن ذكره أهم"، من غير أن يذكر، من أين كانت تلك العناية؟ وبم كان أهم؟ = ولتخيلهم ذلك، قد صغُرَ أمر "التقديم والتأخير" في نفوسهم، وهوَّنوا الخطْبَ فيه، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضربا من التكلف. ولمْ تر ظنا أزرى على صاحبه من هذا وشبهه.

---

[1] - دلائل الإعجاز 106.

[2] - المصدر السابق 106 (بتصرف).

[3] - دلائل الإعجاز 107.

[4] - المصدر السابق 108 – 109.

وكذلك صنعوا في سائر الأبواب، فجعلوا لا ينظرون في "الحذف والتكرار"، "والإظهار والإضمار"، و"الفصل والوصل"، ولا في نوع من أنواع الفروق والوجوه = إلا نظرك فيما غيره أهمُّ لك، بل فيما إن لمْ تعلمْه لم يضرك."[1]

ومن أهم مباحث التقديم والتأخير عند عبد القاهر الجرجاني مبحث "التقديم مع همزة الاستفهام"[2]، وقد أبدع في بيان الفرق التداولي بين كل حالة من الحالات التي مثل لها. فبين المقتضيات المقامية لهذه النماذج، ومتى ينبغي البدء بالفعل، ومتى نقدمُ الفاعل، وما هو المقام الذي يقتضي تقديم المفعول. كما بين عبد القاهر أن الإنكار بالهمزة قد يكون إما للفعل (ماض أو مضارع) أو للفاعل أو للمفعول، وقد فسر ذلك أسلوبيا وتداوليا.[3] ثم توقف عبد القاهر عند التقديم في أسلوب النفي، فبين أغراضه التداولية أيضا[4]، وذلك ما يمكن توضيحه أهمه بالجدول الموالي:

أسلوب المتكلم	مقتضى القول عند الجرجاني
1- أفعلتَ؟	1- البدء بالفعل: يقول: " تبدأ في هذا ونحوه بالفعل، لأن السؤال عن الفعل نفسه والشك فيه ،لأنك في جميع ذلك متردد في وجود الفعل وانتفائه، مجوزٌ أن يكون قد كان، وأن يكون لمْ يكن"[5].
2- أأنتَ فعلتَ؟	2- البدء بالاسم: بين الجرجاني أن المتكلم إنما يبدأ بالاسم عندما يكون شاكا في الفاعل، يقول: "تبدأ بالاسم (أأنت قلت الشعر)، لأنك لم تشك في الفعل أنه كان، ... وإنما تشك في الفاعل من هو؟" .
3- أشعرًا قلتَ؟	3 - في حين يبدأ المتكلم بالمفعول عندما يكون مهتما بمن وقع عليه الفعل، يقول: "لأنك مهتم بمن وقع عليه فعل الفاعل، أنت لا تشك في الفعل ولا في الفاعل، بل في المفعول"[6].
- أكتاباً قرأتَ؟	
- أعالمًا قابلت؟	
4- ما ضربتُ زيدا.	
5- ما زيداً ضربتُ.	

[1] - المصدر السابق ص 108 – 109. وقد دخل في حجاج هؤلاء البلاغيين، ودحض مذهبهم في التعامل مع هذا النوع من الأساليب. كما بين أنه من الخطإ أن يقسم" الأمر في تقديم الشيء وتأخيره " إلى مفيد وغير مفيد، وأن يعلل تارة "بالعناية، وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب، حتى تطرد لهذا قوافيه ، ولذاك سجعه". ينظر المصدر السابق 110.

[2] - المصدر السابق 111.

[3] - المصدر السابق 114 - 116

[4] - دلائل الإعجاز 124.

[5] - المصدر السابق ص111

[6] - المصدر السابق

	4 – المتكلم ينفي هنا فعل الضرب. 5 – المتكلم لا ينفي الضرب بل ينفي أن يكون زيدا هو المضروب.

وفي المبحث الأخير توقف عبد القاهر الجرجاني عند النكرة وتقديمها على الفعل في الاستفهام والخبر، فقام بدراستها دراسة أسلوبية تداولية كما يتضح من الجدول الآتي:

المثال	الطبقة المقامية المناسبة للقول عند الجرجاني
1) أجاءك رجل؟ 2) أرجل جاءك؟ 3) أرجل طويل جاءك؟ 4) رجلٌ جاءني. 5) جاءني رجلٌ. 6) رجل قصير جاءني. 7) ما أتاني إلا رجل. 8) ما جاءني إلا زيد.	- السؤال هنا عن فعل المجيء هل حدث، ولا يجوز هنا تقديم الاسم. - السؤال عن جنس من جاء أهو رجل أم امرأة. - السؤال عن وصف الرجل أطويل أم قصير. - القصد جنس من جاء . - القصد فعل المجيء. - القصد صفة الرجل. - لا يقال إلا عندما يتوهم السامع أن الذي جاء امرأة. - يقال عندما تريد قصر المجيء على زيد دون غيره لما يتوهم السامع أن غير زيد أتاك.

إن الباحث في هذا المبحث وفي غيره من مباحث علم المعاني، ليجد نفسه أمام تحليل أسلوبي تداولي بلاغي متفرد.

3) سبل الاستفادة من الدرس البلاغي العربي في تحليل الخطاب:

في درسنا البلاغي العربي الحديث دراسات بلاغية، انطلق أصحابها من البلاغة العربية القديمة، ثم انفتحوا على الدراسات البلاغية واللسانية والأسلوبية الحديثة، فجاءت أعمالهم معبرة عن التلاقح بين مختلف هذه الحقول المعرفية، ومثمرة لبحوث متميزة.

فقد استفاد الباحثون والدارسون العرب المحدثون من التراكم الحاصل في تراثنا اللغوي والبلاغي والنقدي، ومن الدراسات التي اتخذت طابعا أسلوبيا. واستفادوا من المنجز حديثا في الأسلوبية والتداولية والبلاغة الجديدة ومن الحقول المعرفية التي اهتمت بتحليل الخطاب. فجاءت أعمالهم متأثرة بهذا التلاقح بين الروافد المتنوعة.

فقد تأثروا بالبلاغة الغربية الجديدة (Rhetorique) التي ارتبطت بـ "شاييم بيرلمان CH.Perleman"، الذي كان له دور كبير في تجديد البلاغة اليونانية القديمة والنهوض بها. بعدما توج أبحاثه في الفلسفة والقيم بكتابه: "مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة"، الصادر سنة 1958م بالاشتراك مع زميلته أولبريخت تيتيكا O.Tyteca. إذ عالج "شاييم بيرلمان" البلاغة الجديدة، في بعدها السميائي كحجاج (Argumentation)، وكآلية في تحليل الخطاب سيميائيا.

ففرضت البلاغة وجودها بعدما كانت منسية ومهملة ومصنفة في خانة العلوم التراثية. وقد ارتبطت الدراسات الحجاجية بحقل الخطاب، "فالبلاغة الجديدة تتمحور أساسا حول تحليل تقنيات الحجاج، ولذلك فهي تحتفي كثيرا بالحجاج وتعطيه مساحة هامة في الدراسة، خاصة مع دراسات شاييم بيرلمان ورولان بارت.

وهكذا صارت البلاغة تقتحم مجالات تخصصية عدة وتتداخل مع سائر فروع العلوم الانسانية كالتحليل النفسي والأنتروبولوجيا والفلسفة واللسانيات. وأضحت تدلي بمعارفها وقوانينها فيها. مما دفع إلى تأسيس مفهوم " البلاغة العامة"، التي أصبحت علما لا يستغنى عنه في تحليل الخطاب. وقد عاد الاهتمام في هذه الدراسات والأبحاث إلى الخطاب الحجاجي. إذ بين الباحثون والدارسون المحدثون أن للبلاغة علاقة وثيقة بالحجاج، يقول الحباشة في شأن هذه العلاقة: "ليس الحجاج علما \ فنا يوازي البلاغة، بل هو ترسانة من الأساليب والأدوات يتم افتراضها من البلاغة (ومن غيرها كالمنطق واللغة العادية...)، ولذلك فمن اليسير الحديث عن اندماج مع البلاغة في كثير من الأساليب. ولما كان مجال الحجاج هو المحتمل وغير المؤكد والمتوقع، فقد كان من مصلحة الخطاب الحجاجي أن يقوي طرحه بالاعتماد على الأساليب البلاغية والبيانية"[1].

فالبلاغة دعامة للحجاج، كما يمكن في بعض الحالات أن يصير الحجاج بلاغة، ويتكلم بلسان حالها، ولما كان الحجاج يتوجه إلى مخاطب بخطاب مجهول النتيجة، لأن المرسل إليه قد يقبل هذا الخطاب الحجاجي أو يرفضه، فإن من مصلحته أن يستند إلى معطيات البلاغة وتراثها في التأثير في الآخر". لأن الأساليب البلاغية قد يتم عزلها عن سياقها البلاغي لتؤدي وظيفة لا جمالية إنشائية، بل تؤدي وظيفة إقناعية استدلالية (كما هو مطلوب في الحجاج). ومن هنا

[1] - التداولية والحجاج، صابر الحباشة، ص: 50.

يتبين أن معظم الأساليب البلاغية تتوفر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية، ولإنجاز مقاصد حجاجية ولإفادة أبعاد تداولية."[1]

فالبلاغة تتضمن عدة وظائف، فبالإضافة إلى وظائفها التعبيرية والتخييلية والجمالية، فبإمكانها النهوض بوظائف حجاجية وتأثيرية بالإقناع والاستدلال، وذلك هو جوهر الحجاج. فالبلاغة بوسائلها اللغوية وأدواتها الأسلوبية تستطيع تحقيق أغراض عدة في دعم الحجاج، وتيسير الإقناع. فتصبح البلاغة بذلك تداولية.[2]

وقد حفل التراث البلاغي العربي بالحجاج، ومن أهم الأقطاب الأوائل للحجاج العربي الجاحظ الذي فصل القول في كتابه "البيان والتبيين" فيما يخص الخطيب من صفات جسدية وملكات ذهنية، وقام بتعداد مميزات الخطيب الإيجابية التي تمنح خطابه القبول، من حلاوة القول والحذق فيه، كما نبه على الخصائص السلبية التي تضعف من موقفه مثل العيوب النطقية والعي.

يقول سعد الخذاري: " وطبيعي أن يكون الحجاج البلاغي سمة مميزة لحضارة العرب، لأنها أمة فكر ونقد وإقناع، كما أنها حضارة تراث لغوي وبلاغي بامتياز، ولأن القرآن – كذلك – يدعو إلى المجادلة بالحسنى في الدين الإسلامي. وبسبب اختلاف التوجهات وتعدد الفرق الكلامية تطور أسلوب المناظرة وأصبح كل توجه يستعمل كل الحجج لدحض أفكار المجادل، كما أن الأسلوب البياني الذي يتمتع به المناظرون زاد من ثراء هذا الفن على صعيد الاستعمال والإقناع."[3]

وهكذا توالت الأبحاث في تراثنا الأدبي العربي من منظور بلاغي جديد، وركزت تلك الأبحاث على الخطاب الحجاجي والإقناعي، بعدما لاحظ الدارسون المحدثون أن ذلك الخطاب لم يحظ بالدراسة الوافية، يقول الدكتور محمد العمري: " فقد ظل البحث في بلاغة الخطاب الإقناعي مغتربا، يعيش حياة الشتاة، في ديار المنطق أو في ديار اللسانيات التداولية. وبذلك ظل بعيدا عن النص الخطابي العربي القديم والحديث، كما ظل بعيدا عن حليفه التاريخي وقسيمه هموم الخطاب البلاغي، أي الشعر والشعرية."[4]

---

[1] - التداولية والحجاج، صابر الحباشة 50

[2] - ينظر سعد الخداري ص 208 – 209.

[3] - سعد الخذاري، ص 210 -211.

[4] - بلاغة الخطاب الإقناعي مقدمة الطبعة الثانية، ص 5.

ولذلك نجد عند بعض الباحثين تنويها بالبلاغيين العرب القدامى الذين تمكنوا من التوفيق في دراساتهم بين التخييل والإقناع، مثل حازم القرطاجني الذي بين " أن التخييل هو قوام المعاني الشعرية، والإقناع هو قوام المعاني الخطابية. واستعمال الإقناع في الأقاويل الشعرية سائغ، إذا كان ذلك على جهة الإلماع في الموضع بعد الموضع، كما أن التخاييل سائغ استعمالها في الأقاويل الخطابية في الموضع بعد الموضع."[1] وقد فسر ذلك بأنه استجابة لرغبة المتلقين، " لما كانت النفوس تحب الافتتان \ في مذاهب الكلام، وترتاح للنقلة من بعض ذلك إلى بعض، ليتجدد نشاطها بتجدد الكلام عليها..."[2]

ولعل هذا الاهتمام بالمتلقي عند حازم، وبضرورة مراعاة الشاعر للمقام التخاطبي، والعمل على تنويع الأساليب، هو ما جعل بعض الدارسين، يذهب إلى الحديث عن البعد التداولي في بلاغة حازم.[3]

والمتأمل في تلك الدراسات التي صارت تتوالى في السنوات الأخيرة، يسجل جمعها بين ما هو بلاغي حجاجي، وما هو أسلوبي ولساني، ويلاحظ استفادتها من البلاغة العربية القديمة، ومن البلاغة الجديدة، وكذا من اللسانيات الحديثة، ويسجل عودة الاهتمام بالأبعاد التداولية والحجاجية والإقناعية للأساليب البلاغية في سياق علاقتها بالخطابات والنصوص.

غير أن بعض الباحثين الناشئين بالغوا في الانبهار بالبلاغة الغربية الجديدة، ووقعوا في ادعاءات تنم عن تسرع في الحكم على البلاغة العربية، كالقول إنها بلاغة إمتاع أو بلاغة الشعر، وكزعم بعضهم أن البلاغيين العرب القدامى لم يهتموا بالخطابات الأخرى، وغير ذلك من الادعاءات التي تطفح بها بعض المقالات والبحوث المتحمسة للجديد الوافد.

وترتب عن هذا الحماس والانبهار للجديد الوافد، وعدم استيعاب القديم التليد، أن صرف البعض همته بحثا وتدريسا إلى ما يسميه "بلاغة جديدة"، وأدار ظهره إلى التراث البلاغي العربي، فلا تجده يحفل به، أو يهتم بدراسته ولا بتدريسه. وقد أثر هذا الحماس على الطالب وعلى المتعلم وعلى الباحث الذي لم يعد يمتلك معرفة عميقة بالبلاغة العربية ولا بعلومها وأساليبها.

---

[1] - منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص 361.

[2] - المصدر السابق 361.

[3] - ينظر على سبيل المثال الباحث: د . مصطفى الغرافي، في مقال عنوانه "البعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال " منهاج البلغاء وسراج الأدباء""، مجلة عالم الفكر، العدد 1، المجلد 40 (يوليو \سبتمبر) 2011 ص 249.

وفي مقابل هؤلاء نجد دراسات وبحوث متميزة استفادت من البلاغة العربية ومن الدراسات والأبحاث البلاغية الجديدة ومن الدراسات الأسلوبية واللسانية. وقد بينت في دراسات وبحوث سابقة أهمية البلاغة في تحليل الخطاب[1]، وبينت كيف يمكن الارتقاء بتعليم الدرس البلاغي العربي[2].

خاتمة

وختاما، نخلص مما سبق إلى النتائج الآتية:

- ✓ إن البلاغة العربية القديمة قد ارتبطت بالنص والخطاب منذ وقت مبكر، مما يجعل الحديث عن ملامح تحليل الخطاب في هذه البلاغة أمرا بديهيا.
- ✓ إن تراثنا العربي لا يزال معينا لا ينضب بالنصوص والخطابات الغنية بأبعادها البلاغية والأسلوبية والحجاجية والجمالية؛
- ✓ رغم ما أنجزه الدارسون العرب المحدثون من أبحاث ودراسات، فإن ثمة مجالات غنية في تراثنا البلاغي واللغوي، ما تزال تفتح آفاقا للبحث البلاغي والأسلوبي قصد إبراز خصائصها الحجاجية والتداولية والأسلوبية، وكذا أبعادها التخييلية والجمالية؛
- ✓ لقد برهنتْ الأبحاث الحديثة على أن البلاغة العربية القديمة تمتلك مقومات وآليات تحليلية مهمة، إذا نجحنا في توظيفها واستثمارها، بعد الاستفادة من التراكم الحاصل في الدرس اللساني والأسلوبي والبلاغي الجديد.
- ✓ إن البلاغة العربية بلاغة خطاب، مهما يكن نوع ذلك الخطاب، لذلك ينبغي ربط الدرس البلاغي العربي بالنص والخطاب، في أبعاده المختلفة التعبيرية والتخييلية والتداولية والحجاجية. لأن بلاغتنا تزخر بمقومات مهمة لتحليل الخطاب في أبعاده المتعددة.
- ✓ ضرورة إعادة النظر في طرق تدريسنا للبلاغة، حتى نمكن الطالب والمتعلم من هذه المقومات والآليات التي تمده بضوابط تغني مهاراته وقدراته في القراءة والفهم والتحليل والتفسير والتأويل. وتغني مؤهلاته وقدراته التخاطبية والتواصلية والإبداعية.

---

[1] - ينظر " اللغة والدلالة في النص الشارح"، د. لخلافة كريم، (2012)، وقد وضحت فيه كيف تسهم البلاغة في قراءة النص الشعري القديم وتفسيره من خلال شرح المرزوقي للحماسة.

[2] ينظر بحث " الدرس البلاغي بالتعليم الثانوي التأهيلي وإشكالات النقل الديداكتيكي"، مجلة مسالك التربية والتكوين، المجلد 3 ، العدد 2، أكتوبر 2020.

المصادروالمراجع

- أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط/1406هـ،1986م.
- ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لأبي الفتح ضياء الدين بن الأثير، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ط/1411هـ،1990م.
- ابن المعتز: كتاب البديع لأبي العباس عبد الله بن المعتز، شرحه وحققه عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى 1433هـ\ 2012م.
- أبو عبيدة: مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بم المثنى التيمي، تعليق محمد فؤاد، الطبعة الأولة (1374هـ/1954م).
- بدوي طبانة: البيان العربي: دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، بدوي طبانة، مطبعة الرسالة، ط2 (1377 هـ-1958م).
- ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لأحمد بن فارس، تحقيق عمر فاروق، مكتبة المعارف- بيروت، ط 1
- ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، شرحه ونشره أحمد صقر، المكتبة العلمية، دون طبعة ولا تاريخ.
- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء لأبي الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة\ن دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الثالثة (1986).
- السكاكي: مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي، ضبطه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1407/2هـ،1987م.
- شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة ، الطبعة التاسعة.
- صلاح فضل:علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، دار الشروق (القاهرة)، الطبعة الأولى، 1419هـ\1998م.
- عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، دار سعاد صابر، الطبعة الرابعة (1993).
- عبد العالي قادا: بلاغة الإقناع، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (1438هـ \ 2016 م)؛
- عبد القاهر الجرجاني:

- دلائل الإعجاز، تأليف الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، الطبعة الثالثة (1413 هـ، 1992م)
- أسرار البلاغة في علم البيان للإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق للدكتورين محمد الاسكندراني وم.بمسعود، دار الكتاب العربي، ط 1418/2هـ ، 1998م.
- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تأليف أبي الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق الدكتور عبد المنعم خفاجي دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (دون تاريخ).
- لخذاري سعد: الدرس البلاغي العربي بين السميائيات وتحليل الخطاب؛ دار الأمان (الرباط) الطبعة الأولى 1438هـ\2017م،
- لخلافة كريم:
- اللغة والدلالة في النص الشارح، الطبعة الأولى 2012، Net impression، ورزازات.
- مقال " الدرس البلاغي بالتعليم الثانوي التأهيلي وإشكالات النقل الديداكتيكي"، مجلة مسالك التربية والتكوين، المجلد 3 ، العدد 2، أكتوبر 2020.
- محمد العمري :
- البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، إفريقيا الشرق - المغرب، (يناير 2005)؛
- في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشرق – المغرب، إفريقيا الشرق – المغرب، ط2 (2002)؛
- منذر عياشي: الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، ط1 (1436هـ\2015)
- هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، ترجمة وتقديم وتعليق د. محمد العمري، منشورات دراسات سال، الطبعة الأولى 1989، البيضاء.
- **المجلات**:
- مجلة البلاغة وتحليل الخطاب:
- "حجاج التمثيل في القرآن الكريم"، عبد الرحيم وهابي، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد4 (2014)، ص 85.
- "بلاغة التمثيل عند الزمخشري." الدكتور أحمد قادم، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد3 (2013).

- مجلة دراسات سميائية أدبية لسانية: "الحجاج والشعر، نحو تحليل حجاجي لنص شعري."
أبو بكر العزاوي ،مجلة دراسات سميائية أدبية لسانية، العدد 7 (1992)، ص 98
- مجلة عالم الفكر: "الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال " منهاج البلغاء وسراج الأدباء"،
د.مصطفى الغرافي، مجلة عالم الفكر، العدد1، المجلد 40 (يوليو \ سبتمبر)2011، ص 249.